ABES13

**(14) شرح حديث «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْـجُبْنِ وَالْبُخْلِ...»**

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

روى مسلم في صحيحه عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ رَسُولُ الله يَقُولُ، كَانَ يَقُولُ: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْـجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَالـْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ،** **اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا،** **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ،** **وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا».**

بدأ زيد بن أرقم هذا التعوذ بأسلوب فيه تشويقٌ وتأكيد على الاهتمام والعناية بما سيرويه لهم فقال: «لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ رَسُولُ الله يَقُول» ؛ ونستفيد من هذا عظمَ عناية الصحابة بالمأثور عن النبي من الدعوات، وشدةَ محافظتهم عليها بألفاظها كما كان يقولها. إدراكًا منهم أن نبينا عليه الصلاة والسلام أوتي جوامع الكلم في دعواته العظيمة، وأن دعواته اشتملت على المطالب العالية والمقاصد العظيمة.

أول هذا الحديث وهو قوله: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْـجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَالـْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ**» اشتمل على التعوذ من ستة أمور تقدم الكلام عنها في الأحاديث السابقة.

قوله: « **اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا...**» إلى آخر الحديث تضمن الدعاء بتقوى النفس وتزكيتها، والاستعاذة من أمور أربعة: من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها. وهي أمور عظيمة ومطالب جليلة يحسن الوقوف عندها وتأمل معانيها ومقاصدها.

قال العلامة الشوكاني رحمه الله: «وقد اشتمل هذا الحديث على الدعاء منه بأن يعطي اللهُ سبحانه نفسَه تقواها وأن يزكيها، أي: يجعلها زاكية كاملة في الإيمان. ثم استعاذ (من علم لا ينفع)؛ لأنه يكون وبالاً على صاحبه وحجّةً عليه، واستعاذ أيضاً من (القلب الذي لا يخشع)؛ لأنه يكون حينئذ قاسياً، لا تؤثر فيه موعظة ولا نصيحة، ولا يرغب في ترغيبٍ ولا يرهب من ترهيب. واستعاذ من (النفس التي لا تشبع)؛ لأنها تكون متكالبةً على الحطام، متجرئةً على المال الحرام، غير قانعةٍ بما يكفيها من الرزق، فلا تزال في تعب الدنيا وعقوبة الآخرة. واستعاذ من (الدعوة التي لا يستجاب لها)؛ لأنّ الربّ سبحانه هو المعطي المانع، الباسط القابض، الضار النافع، فإذا توجّه العبد إليه في دعائه ولم يستجب دعوته فقد خاب الداعي وخسر؛ لأنه طُرد من الباب الذي لا يستجلب الخير إلاّ منه، ولا يُستدفع الضر إلاّ به».

قوله: «**اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**»، فيه إيماء إلى قوله تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}[الشمس:7-10] .

(**آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا**) : أي من علي بأن تكون نفسي نفسا تقية لله محققة لتقواه ، وأصل التقوى ومنبعها النفس، كما قال عليه الصلاة والسلام: ((التَّقْوَى هَا هُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ)).

(**وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا**)؛ زكها : طهرها وأبعدها عن الدنس والسوء ورذيل الأعمال ووفقني أن تكون نفسي زكية مطيعة لله خاضعة له جل في علاه، قال الله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}[الشمس:9]؛ أي زكى نفسه بالإيمان والطاعة والخُلق الفاضل والاستقامة على عبادة الله، {وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}[الشمس:10] أي غمس نفسه في الخسائس والرذائل والأمور التي حرمها الله على عباده؛ فالطاعةُ تُزكي النفس وتُطهرها فترتفع ، والمعاصي تُدسِّي النفس وتقمعها فتنخفض وتصيرُ كالذي يُدسُّ في التراب.

(**أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا**) : هذا تفويض لله وأنك لا تملك من تزكية نفسك شيئا ولا حول ولا قوة لك إلا بالله، ولا يمكن أن تتزكى نفسك إلا إذا زكاها الله {بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ }[النساء:49]، {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ}[النور:21] فهذا تفويض لله ولجوء تام له جل في علاه.

(**أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**)؛ هذا إسمان لله، عظيم أن تتوسل إلى الله بهما في هذا المقام؛ (الولي) و(المولى)، وفيهما أنه سبحانه يتولى عبده المؤمن توفيقًا وتسديدًا وحفظًا ومعونةً ونصرا، قال تعالى: {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ}[الأعراف:196] . وقال تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ}[محمد:11] .

فهو سبحانه الذي يتصرف في النفس بما أراد من إعطائها التقوى والتزكية لها من العيوب والآثام. فالعبد في كل لحظة من لحظات حياته مفتقرٌ إلى ربه، أن يهديه ويزكيَ قلبه، وقد كان عامة أدعية النبي متضمنة لطلب التوفيق وتزكية الله له واستعماله في محابّه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والله سبحانه قد أمرهم أن يطلبوا منه جميع ما يحتاجون إليه من هدى ورشاد وصلاح في المعاش والمعاد ومغفرة ورحمة، وكان النبي يقول في الحديث الصحيح: (اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفة والغنى) ويقول : (اللهم آت نفسي تقواها ؛ وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها)».

قوله: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ**) هذا تعوذ من كل علم لا ينفع، سواء كان لم يؤذن في تعلمه شرعا، أو لم يصحبه عمل، أو لم يهذب الأخلاق الباطنة فيسري منها إلى صلاح الأفعال الظاهرة، وكما قيل:

يا من تقاعد عن مكارم خُلْقه . . . ليس التفاخر بالعلوم الزاخرة

من لم يهذب علمُه أخلاقَه . . . لم ينتفع بعلومه في الآخرة

وقدَّم العلم على العمل لأن العمل بدون علم ضلال.

قوله: (**وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ**)؛ أي تمر عليه المواعظ والزواجر والقوارع وهو مستمر في لهوه وغيّه وصدوده وإعراضه، لا يتأثر بالزواجر والعبر والعظات، مضيع للطاعة والعبادة، نفسه منهمكة في الذنوب والمعاصي.

(**وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ**): أي لا همَّ لها إلا الدنيا مكبةً عليها منخرطة في جمعها وتحصيلها منصرفة إليها، حتى أن بعض الناس من شدة إكبابه على الدنيا ينادي في المساجد : (حي على الصلاة حي على الصلاة قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة) فيبقى لاهيًا بدنياه لا يذهب الى بيوت الله سبحانه، ومهما كثر ماله فنفسه لا تشبع.

(**وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا**) : أي دعوة مردودةٍ على صاحبها ، والدعاء مستجاب لا يرد كما قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}[البقرة:186]، لكن إذا افتقد ضوابطه وقيوده التي بها يكون مستجابًا يردُّ ولا يستجاب، وهي مبيَّنة في سنة النبي . فقوله في هذا الدعاء «وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا» يتضمن طلب التوفيق للقيام بشروط الدعاء وآدابه المأثورة في كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال الطيبي رحمه الله: «اعلم أن في كلٍ من القرائن الأربع ما يُشعر بأن وجوده مبني على غايته، وأن الغرض منه تلك الغاية؛ وذلك أن تحصيل العلوم إنما هو للانتفاع بها، فإذا لم ينتفع به لم يخُلص منه كفافا بل يكون وبالًا ولذلك استعا ، وأن القلب إنما خُلق لأن يتخشَّع لبارئه وينشرح لذلك الصدر ويُقذف النور فيه، فإذا لم يكن كذلك كان قاسيا فيجب أن يستعاذ منه، قال تعالى : {فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ}[الزمر:22]، وأن النفس يُعتد بها إذا تجافت عن دار الغرور وأنابت إلى دار الخلود، وهي إذا كانت منهومةً لا تشبع حريصةً على الدنيا كانت أعدى عدو المرء، فأولى الشيء الذي يستعاذ منه هي -أي النفس- ، وعدم استجابة الدعاء دليل على أن الداعي لم ينتفع بعلمه وعمله ولم يخشع قلبه ولم تشبع نفسه».

ومن فوائد هذا الحديث العظيمة: أن أهمَّ ما ينبغي على المسلم إصلاحُه والعناية به قلبُه الذي بين جنبيه؛ فإن القلب هو أساس الأعمال، وأصل حركات البدن؛ فإن طاب القلب طاب البدن، وإن فسدَ فسد ، وقد كان يهتم بإصلاح القلب غاية الاهتمام ويعنى به تمام العناية، ويوصي بذلك في كثير من أحاديثه الشريفة ويضمِّن ذلك كثيراً من أدعيته المنيفة ، فكان يقول في دعائه : ((اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا)) ، ويقول في دعائه : ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ)) ، ويقول في دعائه: ((اللَّهُمَّ نَقِّ قَلْبِي مِنْ الْخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنْ الدَّنَسِ)).

فمتى صلح قلب المسلم بالأعمال الزاكية والإخلاص والصدق والمحبة لله ولرسوله استقامت جوارحه وصلح ظاهره كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله يقول : ((أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ ))، فصلاح حركات العبد الظاهرة بحسب صلاح حركة قلبه وباطنه، فإن كان قلبه سليماً ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبه الله وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه صلحت حركات جوارحه كلها ، بخلاف ما إذا كان قلبه فاسداً قد استولى عليه حب الهوى واتباع الشهوات وتقديم حظوظ النفس فإن كان كذلك فسدت حركات جوارحه كلها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «ثم القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، ... فإذا كان القلب صالحا بما فيه من الإيمان علما وعملا قلبيا لزم ضرورةً صلاحَ الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق» .

ولهذا فإنَّ من أعظم ما يقوِّي إيمان الشخص الظاهر والباطن: أن يجاهد نفسه مجاهدةً تامة على إصلاح قلبه وعمارته بمحبة الله، ومحبة ما يحبه وبغض ما يبغضه الله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، ومن تمَّ له هذا تمَّ له إيمانه ، وفي الدعاء المأثور (اللهم إني أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ ، وَحُب َالْعَمَلَ الَّذِي يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبَّكَ)، وسيأتي كلام عنه .

وقد ثبت عن نبينا أنه قال : ((مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ ، وَأَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ ؛ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ)) ، ومعنى هذا : أنَّ كل حركات القلب والجوارح إذا كانت كلها لله فقد كمُل إيمان العبد بذلك باطناً وظاهرا ، ويلزم من صلاح حركات القلب صلاح حركات الجوارح ، فإذا كان القلب صالحاً ليس فيه إلا إرادة الله وإرادة ما يريده لم تنبعث الجوارح إلا فيما يريده ، وسارعت إلى ما فيه رضاه ، وكفَّت عما يكره.

وأسأل الله أن يوفقنا أجمعين لكل خير، وأن يصلح لنا شأننا كله، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، إنه سميعٌ قريبٌ مجيب.

وصلى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.